المرأة في المنظور الأدونيسي
بين تظافر الشعري والصوفي

د. عيسى أخضري جامعة الجلفة

العالم جميل، والإنسان على صورة العالم،والعالم على صورة الحق،والإنسان أعظم مجلى لجمال الله،ولا سيما النساء من الإنسان،قال تعالى : ((يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ،إن الله عليم خبير)) (1) ،هكذا خلق الله-سبحانه وتعالى – العالم من جنسين مختلفين ليتم التعارف بينهما ومن ثم التزاوج" لأن كل آخر يتضمن ما قبله والمرأة خلقت بعد آدم،ولذا تتضمن صورة العالم"(2).

خلق الله الكون عن حب،ومن الحب تتولد الأشياء ،وبالحب تنمو،هذه القيمة الإنسانية التي زرعها الله تعالى حتى في أضعف خلقه لتضفي على العالم صبغة جمالية،ومسكن هذه القيمة –بخاصة- في قلب المرأة هذا المخلوق الأنثوي الذي أحبه الرجل مرتفعا بحبه إلى أعلى درجات السمو في العشق والهيام،هكذا هي المرأة مثال الحب والجمال اتخذت رمزا للحب والعطاء والنبع الصافي للحنان،وأمام هذا الشعور النبيل والإحساس المرهف اللذان صارا لا يفارقان ذاك المحب الولهان وأصبح لا يقوى على ذلك الشعور الذي هو أقوى منه عبر لها بطريقة مثلى نابت عنه،وعن مشاعره في قصائد مطولة ومعبرة عن ولهات القلب العاشق وعن خلجات الذات .

من هذا كانت المرأة مثالا للشاعر ينطلق منه ليجسدها في شعره،كمثال للجمال والعظمة والعطاء،إذ تصبح حافزا في تواصله ونجاحه،و" كما يخدم الفارس سيدته،لكي يحسن الحرب ،فإن الشاعر يحب امرأة لكي يحسن الغناء،بحيث يسمو بعشيقته سموا تصبح فيه مثلا أعلى"(3)،وهكذا كانت المرأة ملهمة الشاعر في شعره وابداعه،فكلما زاد حبه لها زاد إحساسه تألقا وتعبيرا عن حب طاهر عفيف .

ومنذ أن عرف الشعر وأغراضه المختلفة،عرف معه الغزل الذي موضوعه المرأة التي يصفها ويصف مفاتن جسدها وشعرها المشبه بالليل الطويل،وعينها الغزالية،وشيئا فشيئا أصبح الشاعر يتعدى حدوده،لينقل الغزل من عفته وطهارته إلى غزل ماجن تخطى به عادات وتقاليد يجب استلزامها ،مما جعل حضور المرأة في الشعر العربي – ومنذ العصر الجاهلي – لا يقتصر إلا على كونها " ذلك الفضاء الذي ترسو فيه رغبة الرجل " (4)

بهذا المفهوم السلبي كادت شمعة المرأة المنيرة أن تنطفيء وتذوب في وعاء الشهوات والغرائز الجنسية وتبتعد عن صورتها الجميلة التي أراد الله لها أن تكون فيها .

لكنها استعادت مكانتها في رحاب المتصوفة الذين عرفوا الحب ،" لأن الله ما أوجد العالم إلا عن حب ،فالحب يستصحب جميع المقامات والأحوال،والله ظاهر لكل محبوب في عين كل محب، فالعالم كله محب ومحبوب " (5) ، وهم- أيضا- يؤمنون بالحب الجسدي على أنه مرحلة في الطريق إلى الحب الإلهي، فالتقرب من الله وحب الله يكون بصعود سلم الحب الإنساني ،وبهذه العقليات الصوفية،نقى المتصوفة الصور الحسية من شوائبها،واستخدموا رمز المرأة بعيدا عن العلاقات الجنسية والشهوات الغرائزية،لأن الحب الجنسي مجردا هكذا من كل شهوانية الجسد الغليظة،يرتفع إلى أعلى درجات السمو والروحانية،كي يكون رمزا نبيلا على الحب الصوفي . "(6)

هذا الحب الذي استحوذ على شخصية المحب وملأ نفسه جعله لا يرى سوى محبوبه لا شيء آخر غيره ،فالحب عند المتصوفة ذو قيمة عظمى،" حب أهل التصوف إرتحال عن الذات،وخلاص من سجن الجسد،وعذاب نبيل،وجود بالنفس هو أسمى غاية الجود".(7)

كما يغاير منظور الصوفية إلى المرأة بعض الرؤى والفلسفات،فالمرأة أومأت في الشعر الصوفي إلى الذات الإلهية،وكانت أهم رمز من الرموز التي استخدموها في الشعر العربي،لافتا الأنظار حوله،لذا اتجه الشعراء المحدثون هذه الوجهة،وهذا بهدف الوصول إلى معرفة الحقيقة ،هذه الحقيقة هي الحب،" لأن الحب طريق للبحث عن الحقيقة،وهو فعل يقوم به المحب ،أي أن الحب فعل،والفعل معرفة،والمعرفة هي الحقيقة،والحقيقة هي الحب " (8)

واختلف استعمال رمز المرأة عند الشعراء المعاصرين- أنفسهم- فمنهم من كان يرمز لها كأنها الوطن الأم،وهناك من رمز لها لتنوب عن حنان وعطف الوالدة،وثالث رمز بها إلى الأرض ،وآخر صرح بها محبوبة له،وهناك من عبر بها عن نزواته وملاذه الجنسية باعتبارها شهوة لا غير،وأدونيس من بين الشعراء الذين استدعوا المرأة في شعرهم ورمزوا بها الأرض،الجنس.

يمزج أدونيس بين صفات المرأة والأرض،فيدمج المرأة بأعضائها وجسدها،في صورة الأرض فيعبر قائلا :

آخذك
ثنية ثنية
وأفتتح مسالكي
أتمدد فيك لا أصل
أتدور لا أصل
أتسلك أنتسج لا أصل
أصل من أقاصيك لا أصل (9)

هذا ربط للمرأة بالكون – بأبعاد أخرى – على غرار بعدها الجنسي،حيث يصبح الحوار الجسدي مع المرأة وعلاقتها بالشاعر – نفسه- مخرجا له من سجن الأنا والإنفتاح على الآخر وخرق كلي للحواجز وهدم لقيود التقاليد ،أين تصبح مرتعا لمشاعره وأحاسيسه ،وعاء تتدفق فيه مكبوتاته،مخرجا حرا إلى العالم الآخر :

آخذك أرضا لا أعرفها
تلالا وأودية تغطيها نباتات البحث
امتدادات غامضة يسكنها رمل
بني أصفر أزرق
يسكنها الزمن (10)

وكأنه للمرة الأولى يتخذها سبيلا له يكشف فيه ما لم يره من قبل يبحث عن سبيل للخلاص من الضياع والتلاشي خوف من غموض جسدها وتيهانه فيه فالشاعر يعتبر هذه الرحلة في جسد المراة رحلة إكتشاف:

جسدك التيه
أخرج
و اخذك أرضا لا أعرفها
أسفار خروجي أنت
تلالا وأودية تغطيها نبا تات البحث(11)

بهذه الألفاظ (جسدك التيه ،أخذك أرضا ' وتلالا ،...) يربط أدونيس بين المرأة والأرض بصلة مباشرة ،تتوحد فيها المراة بالارض ،وكما هو معروف- لديه – من تفريغ للمعاني وشحنها بمعان جديدة ،أفرغ محتوى كلمة "المرأة" وشحنها بدوال كلمة "الارض" لتحل محلها وتتغطى بالتلال والنباتات والأودية .

أما توجه أدونيس إلى تمجيد الجسد فكان في وقت مبكر من حياته ،ففي "مزامير الإله الضائع " (1956م) يقول :

يا شهدي يا شهد الشهوه
يا أرضا تجنى في خلوه
يا قبه
فيها كل نجي يشهد ربه
يا قصرا يعلو تحت الزغب
في أحشائك تيه يجرف رمل التعب
في أحشائك أحيا موج الجنس ، أكابد ثورة مده
أرد العالم في لا حده
في أحشائك أعرف أوقن أن الاتي
سر حياتي
فيك أصور أبدع ، أعلى أثاري
أوضح أعتم أسراري
فيك أنشىء فيك أحقق أن الله
لا يتناهى(12)

يربط أدونيس الجنس والشهوة واللذة الحسية والغرائز الناجمة عن اتصال الرجل بالمراة لونا من الدين ، ورؤيته للجنس تختلف من صوفية الى سريالية إلى وجودية ، فلقد أدخل امراته- في شعره – إلى كل مذهب من المذاهب السابقة ، فالمرأة في المنحى الصوفي تعبر عن الاتحاد مع المطلق سواء في العشق الجسدي أو الفناء الصوفي وتتمثل في القصيدة طقوس الجسد برؤى صوفية ، وهذا في ديوان "المسرح والمرايا"

الموت وجه شاعر ،او كلمه
منذورة للأرض
الموت حصن عاشق
وتمتمه(13)

وبالموت يكون اللقاء الابدي بين العاشق والمعشوق ، أين يدعو المحب محبوبه ،ويتم لقاؤهما ليموتا معا ميتة حب:

هاتي يدك اتبعيني
لم يبق غير الموت ،غير حلم ،
وغير خطوتين (14)

تتحقق فكرة الوجود عند أدونيس بدعوى رؤى صوفية ، متخذا رموز أسطورية ، إذ يقول :

أنت بحيرة
وأنا جذع لفاح الامان وملآن بالأرض
أرسو في شواطئك وخصرك مرساتي(15)

الفلك التي يرسو بها إلى الشواطئ هي المراة ويرمز إلى الجنس بالبحيرة والجذع والارض والشواطئ والمرساة، إن أدونيس يتخفى وراء ستار الصوفية ليعبر عن مكنونه و مكبوتاته مسافرا من عالم المحسوسات إلى العالم المطلق :

طفل تحت ثيابي يصرخ : الحب الحب
الشجر مصابيحه والهواء برجه وأجراسه
راكض حبه في قوادم الريح
طائر حيث لا حد
في اتجاه السماء السماء السماء (16)

ولكن "أدونيس" يرى أن الرؤى الصوفية إنما هي هدم ، هدم للآلوهية ، هدم للشريعة ،هدم المحرم والقانون ، لكن هذا التصور خاطئ إذا ما رجعنا إلى أساس قيم الصوفية التي ترتبط بالمرأة برباط مقدس وهو الزواج والتحلي بسمة الحياء المهذب للنفس والباحث إلى احترام تعاليم الاسلام ، وهذا ما دفعه بالتوجه الى السريالية التي وجدها متنفسا لوجدانه وما تحتويه من حرية في التعبير وإطلاق العنان ، فالسرياليون برؤيتهم الإيروسية (*) "التي هي تعبير عن التمرد على القانون الشكلي " (17) وتحطيم للمحرمات والقيود التي صنعها المجتمع وكبل بها أفراده ، فالمراة – عند الإيروسيين – هي مستقبل الرجل ، هي ذاته ، هي خلاصه و قدره .

وهي قبلة الشاعر وغايته :

الطريق امرأة
وضعت راحة المسافر في راحة العشيق
ملآت راحة العشيق
بالحنين وأصدافه (18)

فتحت السريالية الابواب لأدونيس لاستضافة الجنس والجسد في حضرة قصائده لأنها ترى "أن الحب يوفر الإمكان لتجاوز أشكال الوجود الثلاث (الجنون ،الحلم ، الكتابة) ففيه يلتقي الكائن بحقيقته ،ويتحرر من جميع الأعراف ، ويتسامى . "(19) فوجدها مرتعا لملاذه يقول :

خصرك لي نموذج وصوره
لهذه المعمورة (20)

ويقول :

بعد هذا نتفيأ سرادق الحوض
حين يستدير كوكب الجنس
يكتمل التحول
يصير ثدياك الليل والنهار

أحسب نفسي موجة وأظنك الشاطئ
ظهرك نصف قارة ، تحت ثدييك جهاتي الاربع
أتشجر حولك
وأهوي ، بينك وبيني نسرا بالآف الأجنحة (21)

يظهر جليا إنفلات أدونيس من الرؤى الصوفية ويستقل من أسلبة التصوف ومن سلطة الشرع ،فهو يقدم الجسد على الروح ، ويجعله عالما متفردا:

جسدك مدينة
طلع منه الخدم صفوفا تحت مغاور العنق
وقوس الاهداب
وانطلقت البشائر بقدومي
كل جارحة صارت شباكا
كل نبضة عاشقة
وانشالت النوافذ والابواب
وتلآلآت المقاصير والحدائق والساحات (22)

فاق تمجيد ادونيس للجسد الحدود حتى بلغ اللغة ، فهو إثر عجزه عن تحقيقه في الواقع، أراد للغة أن تجسده فيقول :

اكمل جسدك بنفيه
ولتكن اللغة شكل الجسد
وليكن الشعر إيقاعه (23)

نلمح من خلال المقاطع الشعرية المقتطفة أن ادونيس استبدل الحب بالجنس ، حتى وصل إلى درجة انه أطلق لفظه "جسد" على القسم الثالث من "مفرد بصيغة الجمع" وصرح في سطرين قائلا :

وقلت : الجسد لا الحب جلد الزمن مسام الارض
الجسد لا الحب قوس الافق عضلة الريح (24)

إن هذا التطرف الذي تميز به أدونيس ناتج عن قيود تكبله ، لأن الجسد الإنساني ينشد الحرية دائما ، والحرية التي تبدو لنا مطلبا ذهنيا مجردا هي في نهاية التحليل ،حرية ينشدها الجسد "(25)، وأداة يأخذها من واقعه المحسوس إلى واقع غيبي ميتافيزيقي ،تنقله من عالمه المرئي إلى عالم غير مرئي بعيد كل البعد عن الاول ' أين ينسى فيه الشاعر – رغما عنه –

ذاته وكيانه ، فيعبر أدونيس عن هذا الشعور الغريب قائلا :

أجمع بين القمر والشمس
وتقوم ساعة الحب
أنغمس في نهر يخرج منك الى ارض ثانية
أسمع كلاما
يصير جنائن وأحجارا أمواجا أمواجا

وزهرا سماوي الشوك

هكذا يقول السيد الجسد (26)

هذا التصريح المباشر لأدونيس – في شعره – عن الجسد كان إثر تأثيره بالوجودية المنددة لمبدأ "افعل افعل افعل وليكن فعلك مطلقا من كل قيد "(27)، هذا التنديد بالحرية هو المبدأ الآولي للوجودية ، وكما سبق وأن ذكرنا فلقد تمرد أدونيس على التعاليم الدينية ، وتحرر من حجزها له فأنشد النماذج المتمردة (27)

هوامش البحث

1- سورة الحجرات – الآية :13 .

2- إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصرف- الاثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر 1945-1995 ،مصر ، دار الامين للطباعة والتوزيع ، ط1- 1999 – ص 47

3- المرجع نفسه – ص: 51.

4- آمنة بلعلى : تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة- منشورات الاختلاف- ط:1- 2002 – ص: 76.

5- عصام محفوظ: مع الشيخ الأكبر ابن عربي – بيروت- دار الفرابي – المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار – الجزائر – ط: 1 -2003 – ص :95 .

6- إبراهيم محمد منصور : الشعر والتصوف– مرجع سابق- ص : 51.

7- عادل كامل الألوسي : الحب والتصوف عند العرب - بيروت – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – ط1- 1999 – ص :77

8- إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف – مرجع سابق- ص:45.

9- محمد لطفي اليوسفي : في بنية الشعر العربي المعاصر – تونس – سراس للنشر – ط3 - 1996 – ص :125

10- محمد لطفي اليوسفي : في بنية الشعر العربي المعاصر – مرجع سابق – ص :113

11- المرجع نفسه – ص : 114.

12- أدونيس : علي أحمد سعيد - الاعمال الكاملة 1- بيروت – دار العودة- ط4- 1985 – ص ص : 214-215

13- أدونيس : الأعمال الكاملة 2- مصدر سابق – ص : 8

14- المصدر نفسه – ص : 9

15- عدنان حسين قاسم : الابداع ومصادره الثقافية عند أدونيس – مصر– دار العربية للنشر والتوزيع– د ط – د ت - ص : 126

16- أدونيس : الأعمال الكاملة 1- مصدر سابق – ص ص : 524

17- أدونيس : الصوفية والسريالية – بيروت – دار الساقي – ط1 -1992 - ص : 110

18- أدونيس : الأعمال الكاملة 2- مصدر سابق – ص :32

19- أدونيس : الصوفية والسريالية - مرجع سابق – ص ص : 109

20- أدونيس : الأعمال الكاملة 2- مصدر سابق – ص ص :112

21- أدونيس : الأعمال الكاملة 1- مصدر سابق – ص ص :516

22- المصدر نفسه – ص : 522

23- أدونيس : الاعمال الكاملة 2 - مرجع سابق – ص ص :648

24- المصدر نفسه – ص : 593

25- عدنان حسين قاسم : الابداع ومصادره الثقافية عند أدونيس – مصر – دار العرابية للنشر والتوزيع – د.ط – د.ت – ص : 119.

26- أدونيس : الآعمال الكاملة 1 – مصدر سابق – ص : 151

27- عدنان حسين القاسم : الابداع –مرجع مسبق-ص : 119.